

المقياس : مصادر فلسفية هانز جورج غادامير الحقيقة والمنهج.

السنو أولى ماستر فلسفة عامة

فيلسوف الماني 1990 2002 عمل غادامير على منوال أستاذه هايدغر، ولكنه اختلف معه في المنهج، كان لهيدغر اثر كبير على حياة غادامير، اذ كان الشخص الذي سلك به الى التجربة الفلسفية، والتي شبهها غادامير بالسعة الكهربائية اول مرة يلتقي غادامير بهيدغر كان ذلك في فرايبورغ، ويقول عن هذا اللقاء بان هيدغر ترك عليه تاثيرا كبيرا وأجهز على الكثير من خبراته السابقة ان الفلسفة الهيرمينوطيقية عند هانز جورج غادامير تقف بشكل كبير على فلسفة هايدغر مما جعل العلاقة بين الفيلسوفين علاقة معقدة ومتشابكة، كما انها علاقة خصبة وثرية، وهي بهذه المثابة تعد هدفا مستمرا و موضوعا مغريا للقراءة والتأويل، ومن اجل الدخول الى صلب العلاقة بين هذين الفيلسوفين الكبيرين، والولوج الى عالمهما الرحب، هنالك اكثر من مدخل واكثر من طريق لتحقيق هذا الهدف اهم مؤلفاته الاخلاق الديالكتيكية عند افلاطون، افلاطون والشعراء، الشعب والتاريخ في تفكير هيردر، غوته والفلسفة، في اولية الفلسفة، في المجري الروحي للانسان التفسير والنزعة التاريخية، الحركة الفينومينولوجية في المحطة الفلسفية، مشكلة الوعي التاريخي، الحقيقة والمنهج هو كتاب ألفه على فترات طويلة من الزمن ليس ليخرج في صيغته النهائية، ولكن يبدو لأنه ليست هناك صيغة نهائية؛ فغادامير ظل سنين طويلة، في كتابة كتابه العمدة هذا، يتأني في بلورة فكره، ويتأني في إعلامه. وفي كتابه " الحقيقة والمنهج " يشير غادامير إلى أن المنهج ليس طريقاً إلى الحقيقة، بل - وحسب رأيه- إن المنهج يتعامل مع الحقيقة على أسس موضوعية سلفاً، بهذا تكون الحقيقة معروفة مسبقاً، غير أن هذا لا يتم مع العلوم الإنسانية، لأن تطبيق المنطق الاستقرائي الذي يستخدم في العلوم التجريبية لا يمكن استخدامه في العلوم الإنسانية ينبغي الان ان نبين كيف تصور غادامير الفهم في فلسفته التأويلية لكي نبرز مدى حضور هايدغر في هذا التصور ومحاولته هذه تواصل من جهتها ما دشنته البحث الظاهراتي على يد هوسيرل، وفتوحات دلتاي التاريخية، والأفق الذي رادّه هايدغر في فهم الوجود الإنساني كيف يكون الفهم ممكناً؟ هذا هو السؤال الرئيس لهذا الكتاب. أما المسألة الأخرى التي أثارها غادامير فهي الاحكام المسبقة والمعرفة المكتسبة على مدى حياة الفرد)، والتي دعا دلتاي الى التخلص منها أثناء محاولة فهم نص ما، حيث يؤكد غادامير على أن عملية الفهم يبدأ أولاً من بوابة الذات، وتلعب الأحكام المسبقة دوراً أساسياً فيها على إثر هايدغر أقدم غادامير على محاولة إثبات شمولية الفهم، كي يدلل على الأهمية الاصلية للتأويل كما يفهمه لكل أنواع التجارب الإنسانية، وقد حاول في الوقت نفسه، هذه الفلسفة التأويلية التي طورها غادامير، والتي تتبع بعض موضوعات الفكر الهيدغري، تختلف بشكل تام عن التأويلية الكلاسيكية التي تفهم على أنها " منهج لتفسير النصوص هكذا فإن غادامير يجعل من الأحكام المسبقة شروطاً للفهم، وينادي بإستعادة سلطة التراث، لأن التراث عنده ليس شيئاً يقف عائقاً أمامنا، وإنما هو شيء نوجد فيه، بل إن التراث له أفق يجادل أفق المرء، فالقارئ الذي يجد نفسه أمام نص أو تراث له أفقه وأسئلته ومطالبه وإشكالاته يسأل النص في أفقه وأهدافه ومقاصده.

يرى غادامير أن طريق الحقيقة ليس هو المنهج بالضرورة، ومن خلال كتابه هذا أراد غادامير القضاء على دوغمائية ارتباط الحقيقة بالمنهج، انفصال الحقيقة عن المنهج، فلم يجد غادامير ضرورة في أن تكون الحقيقة مرهونة بالمنهج، ويعد الفن من أخصب المجالات التي ينكشف فيها هذا النوع من الحقيقة، لأنه خبرة يقال لنا فيها شيء ما يقتضي الفهم والتفسير، لهذا كان الفن نقطة الانطلاق الكبرى لكتاب غادامير الشهير "الحقيقة والمنهج"، بوصفه يقدم مثلاً خصباً للحقيقة، أو

نموذجاً للكشف عنها. وبهذا المعنى يمكن القول بأن هناك قرابة بين خبرة الفن والخبرة الهرمنيوطيقة، لذلك ارتكز مسعاه على إعادة تحليل المنهجيات الجمالية في الفن، ثم في العلوم الإنسانية التي كان يسميها علوم الفكر، ثم في اللغويات والفعاليات اللغوية .. فعمليات الفهم في العلوم الإنسانية تتجاوز المنهج، كونه لا يوصلنا إلا إلى الإجابة عن الأسئلة التي يطرحها، انطلاقاً من كون عملية التأويل ليست سوى حوار وتفاعل بين المؤول والنص، وبالتالي فإن الفهم ليس سوى نتيجة حاصلة لهذا الحوار، ويحدث عند التوافق بين المؤول والنص، حيث تنصهر التجربتان في ناتج جديد، يُعبّر عنه بالمعرفة الحاصلة باندماج الأفق الفكري للمؤول وأفق معنى العمل الفني أو النصي، ففي الباب الأول سؤال الحقيقة في تجربة الفن؛ يقدم غادامير نقداً للوعي الجمالي تحت عنوان "تعالى البعد الجمالي" ليخرجه من الذاتية التي سيطرت على مناهج الفهم الجمالي، وبعد تناوله مشكلة المنهج ينتقل إلى مراجعة المفاهيم الموجهة للنزعة الإنسانية: (الثقافة- الحس المشترك- الحكم- الذوق) ثم يقدم في المبحث الثاني مناقشة مستفيضة لكانط وكتابة نقد ملكة الحكم ومذهبه في العبقرية والذوق والجمال والخبرة والأمثلة، والمبحث الثالث إحياء "سؤال الحقيقة الفنية" يطرح فيه مفهوم الثقافة الفنية والنقد التجريدي المتأصل في الوعي الجمالي كما يتعرض لأنطولوجيا العمل الفني ودلالاتها التأويلية، إنها دعوة للدخول في عالم النص، الاندماج فيه لنحصل على إشعاع الحقيقة المنبثق منه. يبحث هذا العنوان في علاقة الحقيقة بالمنهج. هل المنهج هو الطريق إلى الحقيقة كما تؤكد العلوم الطبيعية أم أن هناك طريقاً أو طرقاً غير المنهج كما هو بمفهوم العلوم الطبيعية. الحقيقة المنبثق منه. يبحث هذا العنوان في علاقة الحقيقة بالمنهج؛ ويطرح الإشكالية التالية: هل المنهج هو الطريق إلى الحقيقة كما تؤكد العلوم الطبيعية أم أن هناك طريقاً أو طرقاً غيره تمكن من بلوغ الحقيقة؟.

هكذا، يستبعد غادامير المنهج عن الحقيقة، فالأمر يتعلق بتصوره للحقيقة حيث يرى بأنها لا تطلب منهجياً بل جدلياً، وهذه الطريقة الجدلية هي في الحقيقة نقيض المنهج، وهي وسيلة للتغلب على نزوع المنهج إلى أن يشكل العقل ويصبه في قالبه ويحدد مسبقاً طريقة الشخص في رؤية الأشياء، فالمنهج إن شئنا الدقة غير قادر على كشف حقيقة جديدة؛ المنهج لا يفعل أكثر من التصريح بصنف الحقيقة المضمّر سلفاً في داخله، ففي المنهج تمسك الذات الباحثة بالزمام وتقوم بالقيادة والتحكم والتلاعب، أما الجدل فيترك الموضوع الذي يقابله يلقي أسئلته الخاصة التي تتعين الإجابة عنها، لم يعد الموقف التأويلي هو موقف سائل وموضوع يتوجب فيه على السائل أن يشيد مناهج تكفل له أن يوقع الموضوع في قبضة فهمه، بل أصبح السائل على العكس يجد نفسه الطرف الذي يجري إستجوابه؛ يستجوبه الموضوع ويلقي عليه الأسئلة، ويصبح نموذج الذات/موضوع مجرد تضليل إن مشروع غادامير الفلسفي، بمجمله، ينبع من شك موجه نحو الاستغراق الكلي لفكرة المنهج، التي فهمت كسبيل أوحدهم للولوج إلى الحقيقة، والمنهج عنده ليس هو الطريق إلى الحقيقة! بل من دأب الحقيقة، على العكس أن تفوت رجل المنهج وتروغ منه المنهج هو شيء ينبع من الذات ليوصل إلى نتيجة، هذه النتيجة لا تعني الحقيقة أبداً كما هو الحال في العلوم الطبيعية ما يريد قوله غادامير هو أن الطريقة أو المنهج لا أهمية له في حدوث عملية الفهم، مع أنه لا ينكر إمكانية الاستفادة من المنهج في العلوم التجريبية، بينما ينفي إمكان الوصول إلى الحقيقة في جلّ القضايا والظواهر الفنية والتاريخية عن طريقه

لقد اهتم غادامير بشكل كبير بمسألة التفهم وعلاقتها بنظرية المعرفة وبالتأمل الأنطولوجي للغة وربط التفهم بقضية ما يسميه بسوابق الأحكام، حيث يرى أن اللغة لا تتضمن معايير أو منطلقات تساعده على التحرر من المسبقات أو تغيير العالم لتحقيق ما يجب أن يكون أن بلوغ الحقيقة في مجال العلوم الإنسانية يتعدى الطريقة التي تباعد بين الذات الإنسانية والموضوع الذي تعينه كما

هي عليه الحال في العلوم الاختبارية بل ان بلوغ الحقيقة ههنا يستلزم توريث الذات التي تعاني في الموضوع الذي تعينه فعمليات الفهم في العلوم الإنسانية تتجاوز المنهج، كونه لا يوصلنا إلا إلى الإجابة عن الأسئلة التي يطرحها، انطلاقاً من كون عملية التأويل ليست سوى حوار وتفاعل بين المؤول والنص، وبالتالي فإن الفهم ليس سوى نتيجة حاصلة لهذا الحوار، ويحدث عند التوافق بين المؤول والنص، حيث تنصهر التجربتان في ناتج جديد، يُعبّر عنه بالمعرفة الحاصلة باندماج الأفق الفكري للمؤول وأفق معنى العمل الفني أو النصي، ومن التركيب الحاصل بينهما يحصل الفهم .

الفهم عند غادامير ليس عملية ذاتية للانسان بإزاء الموضوع، بل هو أسلوب وجود الانسان نفسه، وكما كان الفهم لدى هيدغر هو نمط الوجود الإنساني نفسه، تكون التأويلية كذلك ليست التأويلية خطوات أو إجراءات في الفهم، إنما هي عالم يصوغ وجودنا بأسره، ويغمرنا من حيث علاقتنا، بوصفنا كائنات إنسانية، بالناتج الإنساني برمته. وعلى وفق هذه الرؤية، يعيد غادامير صياغة مفاهيم حُمّلت مدلولات غريبة عنها، ويجترح أخرى.

والفهم عنده كذلك هو دائماً حدث لغوي جدلي تاريخي سواء كان ذلك في مجال العلوم او في الانسانيات او في الطهي، والهيرمينوطيقا وفينومينولوجيا الفهم ايضا، فالفهم ليس فعلاً ذاتياً للإنسانية كما يفترض التصور التقليدي، بل هو الطريقة الأساسية لوجود (الدازين) الانسية) في العالم، او أسلوب في الوجود، فالفهم شيئاً يكونه الانسان ولا يفعله، ومفاتيحه تتمثل في المشاركة والانفتاح؛ ليست المعرفة بل الخبرة، ليست الميثودولوجيا (المنهج) بل الديالكتيك (الجدل)، وليست غاية الهيرمينوطيقا عند غادامير ان تقدم قواعد للفهم "الصائب موضوعياً" بل ان تتصور الفهم نفسه بطريقة محيطية شاملة قدر المستطاع اذن يمكن القول بان الفهم هو تطبيقه، اي ربط معنى النص بمجريات الحاضر، وهذا هو الامر الذي قام به كل من هيدغر وغادامير في كتابه الحقيقة والمنهج، فمع ظهور هذا الكتاب نجد ان النظرية التأويلية دخلت مرحلة جديدة وهامة، ونجد افكار هيدغر التأويلية الثورية قد وجدت لها في كتاب غادامير تعبيراً منظماً ومكتملاً، وخرجت الى النور متضمناتها فيما يتعلق بالتصور التاريخي والاستطريقي الكتاب يسعى الى اعادة النظر في التراث الغربي وتاريخه ويضعها في الميزان لينتج تقيماً جديداً لهما فالظاهرة التأويلية تتضح حسب رايه باختبار تجربة الفن والتراث يشدنا لفهم العلوم الانسانية عبر محك المنهج ويسد الثغرات التي تحدث من جراء استخدامه ضرورة الفكر التأويلي للعلوم الانسانية وهكذا أمكن القول إن غادامير عمل في مشروعه الفلسفي على تجاوز التصورات التي بنيت حول التأويل ابتداء من أرسطو وصولاً إلى فرسان التأويل في العصر الحديث مع شلايرماخر وديلتاي وهيدجر، ليبرز أن في اللغة ذاتها وبها يمكن الاشتغال على أسس وأصل كل شيء ومساءلة كل الحقائق والمعارف المؤسسة لجماليات الفنون ولمعقولية كل خطاب ومنهج سواء في العلوم الإنسانية أو في العلوم الطبيعية أو في مجال النقد الأدبي، وذلك من خلال التأويل كفلسفة جديدة في الفهم والمعرفة، أو كمنهج تراجع في ضوءه مشروعية المناهج الأخرى، ويقف أمام تشتت موضوعات المعرفة وتشظي الحقيقة، التي وضعها غادامير في مقابل المنهج وجعل من (الحوار) مداراً مركزياً للصراع بينهما وذلك من خلال مجالات ثلاثة رئيسية:

المجال الجمالي ويتعلق بالأعمال الفنية

المجال التاريخي ويتعلق بالرصيد الماضي في المعارف والفلسفة والأديان والآداب وفي التجار بالاجتماعية

المجال اللغوي ويتعلق بالعلاقات والمعاني والدلالات كان السياق الذي ظهر فيه الكتاب، سياق الصراع بين المناهج في العلوم الطبيعية والإنسانية في عصر ساد فيه المنهج العلمي وأصبحت المناهج الأخرى في العلوم الإنسانية ينظر لها بشيء من الاحتقار بوصفها لا علمية ولا تؤدي إلى

الحقيقة، يمكن اعتبار هذا الكتاب دخول في هذا الجدل استمرار مع الخط الهرمينوطيقي الممتد حديثا من شليرماخر ودلثاي وهيدجر وصولا إلى غادامير، لذلك اعتبر غادامير فيلسوف هرميوطيقي "تأويلي" بامتياز، فلا يمكن فهم منجزه الفكري دون فهم سياق الفلسفة التأويلية الهرمينوطيكا كلمة الهرمينوطيكا عند جاسبر تعني مصطلحا تقنيا يفيد في التعبير عن فهمنا لطبيعة النصوص وكيفية تفسيرنا واستعمالنا لها، وقد بدأ استعمالها في إطار فهم وتأويل النصوص المقدسة. بين غادامير في كتابه الحقيقة والمنهج والهيرميوطيكا ليست فرعا مساعدا للدراسات الانسانية بل هي نشاط فلسفي يحاول تفسير الفهم على انه عملية انطولوجية في الانسان ليس ثمة منهج ناجز ولا حقيقة مكتملة، فهذه ليست من مهمات التأويلية. للتأويلية هنا هدف آخر يدخل في صميم التجربة الإنسانية للعالم: فهم الآخر، التراث، تاريخ الفكر الإنساني، اللغة، الفن، الحياة، وتفعيل التواصل القائم على الفهم مع هذا كله، والبحث في الشرعية الفلسفية للحقيقة التي تدعيها العلوم الإنسانية والطبيعية عبر وصلها بشمولية التجربة الإنسانية. فبإزاء التخصص والتفكيك المعرفيين اللذين انغمست فيهما العلوم في القرن العشرين، يحاول غادامير جسر الهوة بين الإنسان والعالم: العالم بامتداده التاريخي الشامل.

يظل غادامير وفيما للمنحنى الانطولوجي الذي رسمه هيدغر والمتمثل خصوصا في مسألة اللغة والتناهي الذاتي الذي تكشف عنه التجربة التاريخية، وهيرميوطيكا الفهم، وفهم الذات على وجه الخصوص، ومن ثم فعودة غادامير الى العلوم الإنسانية هي مساءلة نقدية لأسس ومبادئ هذه العلوم بالكشف عن تناهيتها الخاص، واستحالة تشكيل معرفة صحيحة تعتمد مطلقا على صرامة الميثودولوجيا.

عموما يمكن القول بأن التأويل عند غادامير هو تطوير لما عرضه هيدغر، إذ يتخذ من تحليله مرتكزا وأساسا ونقطة إنطلاق في تحليله للوعي التاريخي، فيرى من المستحيل وجود فهم بلا فروض أو أحكام مسبقة، وهذا يعني التخلي عن تفسير عصر التنوير للعقل، وأن يسترد التراث والسلطة مكانتهما التي كانتا يحتلانها قبل عصر التنوير، لأن عصر التنوير لا يقبل بأي سلطة سوى سلطة العقل، يقول غادامير "فالتغلب على جميع الأحكام المسبقة، وهو المطلب العام لعصر التنوير، سوف يتبين أنه هو نفسه حكم مسبق، والتخلص من هذا المطلب يمهد الطريق أمام فهم مناسب للتناهي الذي لا يهيمن على إنسانيتنا فقط، بل يهيمن على وعينا التاريخي.